الحياة الثقافية
صفحة تعنى بالآداب والفنون والتراث
6
السبت 2026/7/25 - العدد 11001
Saturday 25 July 2026 - No. 11001
للمراسلات: culture@alhaya.ps

مهيب البرغوثي

فيروز.. حين يصبح الصباح أغنية

ليس الصباح عند فيروزهو النهار، بل حالة روحية كاملة تتلبسها وتسكننا ، قبل أن تفتح المدن أبوابها، وقبل أن تمتلئ الشوارع بالضجيج، يأتي صوتهاقبل أن تصحو الحياة حاملا معه رائحة القهوة، ، وضوءا خفيفا لا يشبهه سوى تفتح أزهار الحديقة .

لم تقصد فيروز أن تكون "صوت الصباح"، لكن الأغنيات التي قدمتها مع الأخوين رحباني صنعت هذا التقليد العربي الجميل. صارملايين الناس يربطون بين أول فنجان قهوة وبين ذلك الصوت الذي يرقص أكثر مما يغني، وكأنه يخاطب الفرد لا الجموع

من أشهر أغنيات الصباح التي ارتبطت بها أغنية "صبح ومسا" التي تقول:

"صبح ومسا... وردة على وردة."

وفي أغنية "طل الصباح" تستقبل النهار بفرح هادئ، فيما تبدو الطبيعة شريكا أساسيا في الغناء؛ فالشمس والندى والريح ليست مجرد صور شعرية، بل شخصيات حية في المسرح الرحباني.

أما أغنية "نسم علينا الهوى"، ورغم أنها ليست أغنية صباح بالمعنى المباشر، فإن كثيرين يستقبلون بها نهاراتهم لما فيها من نسيم الريف وحنين العودة:

"نسم علينا الهوى... من مفرق الوادي."

وفي "شايف البحر شو كبير" يطل الأفق الواسع بوصفه وعدا ببداية نهارا جديد، بينما تحمل أغنيات أخرى مثل "كان عنا طاحون" إحساسا بأن الصباح ليس مجرد زمن، بل ذاكرة أيضا؛ ذاكرة البيوت القديمة والقرى والحقول والأجراس.

لقد نجح الأخوان رحباني في بناء عالم صباحي كامل. لا مكان فيه للعجلة أو الضوضاء، بل للخبز الساخن، ورائحة الزعتر، وأجراس الكنائس، وصوت المؤذن، والحقول المبللة بالندى. وصوت فيروز الوعاء المثالي لهذا العالم، لا يعلو على الطبيعة، بل يمتزج بها

ولعل سر استمرار هذه العلاقة بين فيروز والصباح يكمن في أن أغنياتها لا تفرض الفرح، ولا تنكر الحزن. إنها تقترح بداية جديدة فحسب، وكأنها تقول إن النهار، مهما كان مثقلا بالأخبار والهزائم، يستحق أن يستقبل بقليل من الموسيقى وكثير من الأمل.

ربما لهذا السبب، حين يقال في العالم العربي: "هذا صوت الصباح"، لا يحتاج أحد إلى السؤال عن الاسم. الجميع يعرف أن المقصود هو فيروز.

في ذكرى رحيل غسان كنفاني.. النضج المبكر في العبارة والنبوءة

سمير اليوسف *

لعل أطرف مديح قيل في غسان كنفاني قول الروائي والمستشرق البريطاني روبرت اروينج "كان كنفاني عاجزا عن كتابة قصة رديئة واحدة".

رحل كنفاني وهو في السادسة والثلاثين من العمر فقط، ومع ذلك لم ينشر نصا واحدا يعاني من النقص أو عدم الإقناع. حتى قصصه المبكرة، وقد نشرها وهو دون العشرين من العمر، تمنحك الإنطباع بأن صاحبها يتمتع بأعوام عديدة من التمرس في حرفة الكتابة. كنفاني كان باكر النضوج وكل ما تركه لنا أعمال محترف كتابة بالدرجة الأساس.

خذ الفقرة الأولى من رواية "رجال في الشمس"، وقد كتبها وهو في منتصف العشرينات من العمر:

"أراح أبو قيس صدره فوق التراب الندي، فبدأت الأرض تخفق من تحته: ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجة ثم تعبر إلى خلاياه .. في كل مرة يرمي بصدره فوق التراب يحس ذلك الوجيب كأنما قلب الأرض ما زال، منذ استلقى هناك أول مرة، يشق طريقا قاسيا إلى النور قادما من أعمق أعماق الجحيم. حين قال ذلك مرة لجاره الذي كان يشاطره الحقل، هناك، في الأرض التي تركها منذ عشر سنوات، أجابه ساخرا :- هذا صوت قلبك أنت تسمعه حين تلصق صدرك بالأرض.

الفكرة تثير الدهشة بشكل تدريجي: الأرض تخفق، في الأرض قلب يضرب، ضربات قلب متعب .. تصعد من التربة الى خلايا الرجل. ثم أن القلب يقوم برحلة طويلة من أعماق الحجيم إلى النور حيث يستلقي أبو قيس.

تعدد الصور: الصدر على التراب، الضربات تطوف في ذرات الرمل، القلب يشق طريقا قاسيا .

المجازات: تقريبا كل عبارة تنطوي على مجاز ما: العبارة الأولى، هي معانقة الأرض، الإرتماء على الأرض حبا تمسكا بالأرض.. وبعد ذلك قلب أبي قيس وقلب الأرض، قلب واحد ينقسم إلى قلبين.. والقلب متعب .. بفعل الطواف في "الرمل" وليس التراب. أبو قيس الرجل المسن، القلب المتعب، المقبل على رحلة في شاقة، بل وقاتلة، في الصحراء وكأنها رحلة من أعماق الجحيم إلى نور الخلاص.

هذه هي فكرة الرواية العامة في سطور قليلة: الرحلة من جحيم الصحراء سعيا الى الوصول إلى جنة بلد ثري. الرحلة التي ما انفك الكثير من أبناء البلدان العربية يغامر في القيام بها.

علاوة على ذلك، ثمة إنسيابية في السرد عفوية لا يمتاز بها إلا صاحب الموهبة الطبيعية العليا، أو لمن أبدى حرصا استثنائيا، ولأعوام، على إتقان اللغة بحيث يبدو التعبير تلقائيا بشكل مراوغ. تبدو العبارة سهلة واضحة ولكنك حينما تدقق فيها تدرك بأن الكاتب ينذرنا بمأساة وشيكة الوقوع:

" كأنما قلب الأرض ما زال، منذ استلقى هناك أول مرة، يشق طريقا قاسيا إلى النور قادما من أعمق أعماق الجحيم".

هذه العبارة وحدها تمهد الطريق الى نهاية يموت فيها أبوقيس، ورفيقاه، عطشا في صهريج ماء فارغ في الصحراء بين الكويت والعراق.

الخاتمة: ذلك السؤال الذي سيهتف به أبو الخيزران، السائق المهرب، السؤال نفسه سيتردد على مدى قرابة ستة عقود منذ ظهور الرواية وحتى اليوم

"لماذا لم تطرقوا جدران الخزان؟"

***شاعر وصحفي فلسطيني يعيش في لندن**

إرث مريم.. العائلة والملكية في بلاد الشام العثمانية لبشارة

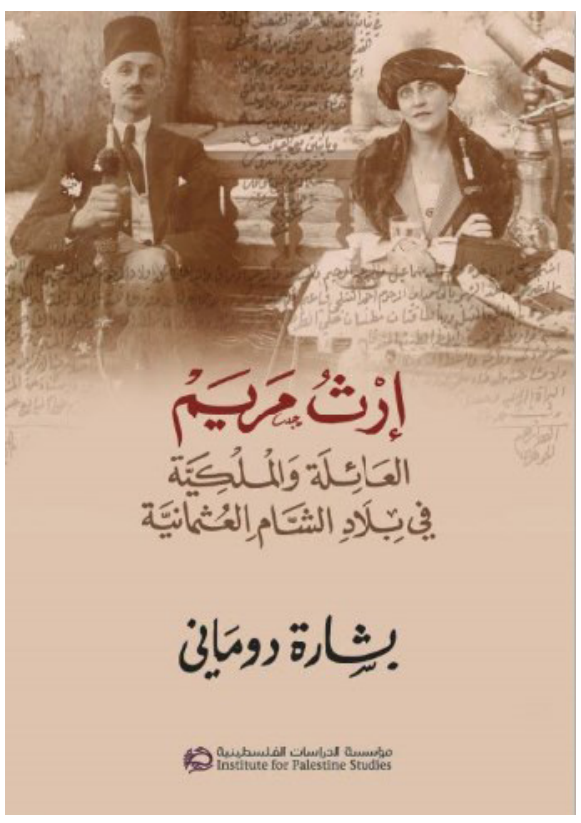

بيروت- رام الله – صدر حديثا عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية كتاب للباحث بشارة دوماني "إرث مريم: العائلة والملكية في بلاد الشام العثمانية"ويعتمد الكتاب على مجموعة واسعة من المصادر المحلية التي تغطي حقبة تمتد على مدى قرنين من الزمن،حيث يعيد دوماني بناء حيوات العائلات العادية وكيف عالجت نقل ممتلكاتها من جيل إلى آخر. ومن خلال مقارنة الوقفيات العائلية والدعاوى القضائية بين الأقارب في المحاكم الشرعية ،عن تباينات إقليمية كبيرة في الطرق التي تم من خلالها فهم العائلة، وتنظيمها، وإعادة إنتاجها. وتتحدى هذه النتائج الافتراضات السائدة حول أنماط العائلة المسلمة أو العربية، والممارسات التاريخية للشريعة الإسلامية ، ومكانة المرأة في الحياة الأسرية، وتشكل المجتمعات الحديثة في المشرق العربي.

ومن خلال مقارنة الوقفيات العائلية والدعاوى القضائية بين الأقارب في المحاكم الشرعية في نابلس (فلسطين) وطرابلس (لبنان)، يكشف دوماني عن تباينات إقليمية كبيرة في الطرق التي تم من خلالها فهم العائلة، وتنظيمها، وإعادة إنتاجها

*بشارة دوماني، أستاذ التاريخ وحامل كرسي محمود درويش للدراسات الفلسطينية في جامعة براون. يركز في أبحاثه على التاريخ الاجتماعي للشعوب والأماكن والأزمنة المهمشة في الدراسات الأكاديمية السائدة. ومن مؤلفاته:

"إعادة اكتشاف فلسطين: التجار والفلاحون في جبل نابلس 1900-1700".

"الحياة الاجتماعية في مدينة الخليل خلال الانتداب البريطاني"

رام الله – الحياة الثقافية – صدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية كتابا جديدا بعنوان "الحياة الاجتماعية في مدينة الخليل خلال الانتداب البريطاني حتى عام 1948"، للباحثة والأكاديمية الأردنية من أصول خليلية، رزان عبد الحليم عابدين، في عمل يوثق الحياة الاجتماعية في المدينة خلال النصف الأول من القرن العشرين اعتمادا على مصادر تاريخية ووثائق أصلية.

ويقع الكتاب في 361 صفحة، وتولى التدقيق والتحرير اللغوي له جنان خليل، ويقدم دراسة أكاديمية تتناول المجتمع الخليلي في الفترة الممتدة بين عامي 1918 و1948، مستندا إلى السجلات الشرعية ودفاتر عقود الزواج، ووثائق الأوقاف والمجلس الإسلامي الأعلى، إلى جانب الأرشيفات العائلية الخاصة، والوثائق البريطانية الصادرة عن حكومة فلسطين، والصحف المعاصرة.

كما اعتمدت الباحثة على مقابلات شفهية مع عدد من كبار السن الذين عايشوا تلك المرحلة، بما أضفى على الدراسة بعدا إنسانيا وأسهم في استكمال الصورة التي تقدمها الوثائق التاريخية.

ويهدف الكتاب إلى تقديم قراءة موثقة للتاريخ الاجتماعي لمدينة الخليل خلال فترة الانتداب البريطاني، عبر رصد ملامح الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية والبنى الثقافية، ليشكل مرجعا للباحثين في التاريخ الفلسطيني، ومصدرا للمهتمين بتاريخ فلسطين الاجتماعي وهويتها.

رزان عبد الحليم عابدين باحثة وأكاديمية متخصصة في التاريخ الحديث والمعاصر، حاصلة على درجة الدكتوراه من الجامعة الأردنية، وتركز أبحاثها على التاريخ الاجتماعي والثقافي لفلسطين في العهد العثماني وفترة الانتداب البريطاني، مع اهتمام خاص بمدينتي الخليل والقدس، من خلال دراسة الوثائق التاريخية وسجلات المحاكم الشرعية.

وسبق للباحثة أن نشرت دراسات علمية محكمة، من أبرزها دراسة بعنوان "الزواج في مدينة الخليل بين عامي 1920 و1948: دفاتر عقود الزواج مصدرا".

ساعي البريد

مصعب أبو توهة*

الحزن هو ساعي البريد الوحيد الذي
يمر على كل منزل تقريبا.
لا عنوان مرسل على المظروف الأسود
ولا الخط قابل للقراءة.
الكل يعبس دون ملامح
وعصافير الربيع باعت حقوق الغناء
لأشجار على حافة الجبال الباردة،
فشوارع المدينة خالية إلا من دبيب
الماضي.
لا يحتاج ذلك البريد لطوابع أو شحن،
فالهواء المكدس بالعماء عربته المفضلة،
وقبلة الخواء بشفاهه السوداء طبعة
منمقة،
وشعر جارة المنزل المهجور ربطة عنق
للبدلة السوداء.
أحجار الرخام الداكن تتصلب في البرد
القارس،
وغيوم بيضاء تنام على فخذ الجبل الصغير.
أما النهر فيستيقظ كلما همست شجرة
السرو مع كل هبة ريح.
وأنام أنا عميقا قبل أن يأتي بريدي
وأعطس روحي.

وفاة غيمة

ماتت غيمة المساء ولم تجد
من يستقبل رفاتها
لا البحيرة ولا البحر
لا الوادي ولا النهر
قدم تعازيه للسماء
حتى القمر أشاح بوجهه عنها،
ذلك القمر الذي كل ليلة كان يمتع ناظريه
من عل بمشاهدة أثدائها
وهي ترضع البساتين
وفستانها الشفاف ينخلع عنها
مع كل عاصفة رقيقة.
حتى الناس لم ينتبهوا لموتها،
لكن لا أحد يعرف أن هذه الغيمة
هي نفسها التي سقت نبيا تائها
ومعلما مفلسا قرب البئر.
لا بأس يا غيمة،
فسوف تحولك الشمس إلى رماد،
وتطيري في الفضاء جنازة.
ستأخذك العصافير تدفن رفاتك
تحت شجرة بنت عليها عشها الجديد،
وبدمعها ستكتب تاريخ الوفاة

تمطرنا الأرض

في بلادي، تمطر الغيوم دمعا،
تجرح ظلها الأسلاك الشائكة على الحدود.
في بلادي، يثقب الرصاص ثوب البحر،
يذوب دم الصيادين في الأمواج السود.
آسف يا سرب الحمام
آسف يا عائلة الغمام
المسافرة من بلد إلى بلد.
بلادي تضيق بنا،
هل تحملوننا معكم فوق الهواء؟
هل نخلع أجسادنا لنطير معكم؟
هل يحتمل الفراغ فراغا فوقه؟
هل نسافر بلا جوازات سفر،
وبلا تذاكر طائرة وبلا حقائب؟
سئمنا حملنا وحمل وطننا معنا.
قتلنا انتظار وصولنا للمحطة القادمة.
شابت ملابسنا لما عرفت أننا لم نبدأ
الرحلة بعد.
تيبست أقدامنا ونبتت عليها طحالب
الجدران.
طالت أظافرنا لنحفر قبورنا تحت شجر
السنديان.
متى ستمطرنا الأرض نحو السماء؟

قبل الجنازة

تمشي الرياح بأثوابها الخيلاء فوق الصخور،
فوق البيوت، فوق الحفر،
فوق البحر وفوق مشاعل النور
في الشوارع المرهقة.
يهطل المطر بخطى واثقة.
تستلقي الرياح على الأرض الباردة،
تمدد يديها وتغسل نهودها.
تنادي على الغيوم بصوتها المبحوح،
"شكرا يا عربات الطهر.
أحبكن يا بنات السماء
ويا ساهرات فوق جفون المساء".
يوقف البحر تصفيقه قليلا وقت العاصفة.
يرخي أذنه لنوتة الطيور وهي تهبط مع
البرق،
تهوي نحو الحقول،
تترك ريشها فوق القبور،
تذهب تستحم تحت الغيوم.
غيمة صغيرة مرت مرة فوق الوادي،
توقفت فوق شجرة جوافة تعرت
إلا من عش أكل عليه الخوف وشرب.
ألقت الغيمة ما في فمها وسقت عصفورا
تكبره هي بساعة
والريح تنهض مرة أخرى،
تكنس الأوراق المبللة قبل أن تمر الجنازة

***شاعر وكاتب فلسطيني، ولد في «مخيم الشاطئ» في قطاع غزة، حاصل على بكالوريوس اللغة الإنجليزية من «الجامعة الإسلامية»، والماجستير في الكتابة الإبداعية من «جامعة سيراكيوز» في نيويورك. حصل على «جائزة الكتاب الأميركي» من «مؤسسة نقابة كولومبوس» في ولاية كاليفورنيا.**